

الرزق

أبوابه ومفاتيحه



عبد المليك القاسم

كتاب القسمة

الرزق
أبوابه ومفاتيحه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٣ ١٤٢٣ هـ دار القاسم للنشر والتوزيع

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية قبل النشر

القاسم ، عبد الملك بن محمد

الرزق ، أبوابه ومفاتيحه . - الرياض .

٨٨ ص ١٢ × ١٧ سم

ردمك : ٣ - ٥٧٦ - ٣٣ - ٩٩٦٠

١ - كسب الرزق ٢ - الوعد والإرشاد أ - العنوان

٢٣/٠٨٧٩

ديوي ٢١٣

رقم الإيداع : ٢٣/٠٨٧٩

ردمك : ٣ - ٥٧٦ - ٣٣ - ٩٩٦٠

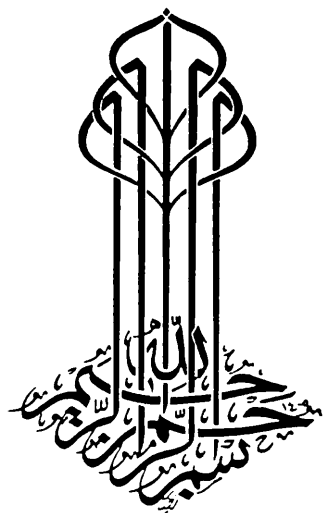
حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

العنوان : الرياض ، طريق الملك فهد جنوب شارع التلفزيون

للمراسلات ، الرمز البريدي ١١٤٤٢ - ص ب ٦٣٧٣
الرياض هاتف ٤٠٩٢٠٠٠ فاكس ٤٠٣٣١٥٠
فرع جدة هاتف ٦٠٢٠٠٠٠ فاكس ٦٣٣٣١٩١
فرع بريدة هاتف ٣٢٦٢٨٨٨ فاكس ٣٦٩٢٨٨٨
✦ البريد الإلكتروني sales@dar-alqassem.com
✦ موقعنا على الإنترنت www.dar-alqassem.com



مقدمة

الحمد لله الذي أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة،
فهدانا للإسلام، وأتم علينا هذا الدين، وأرسل علينا
السماء، وأخرج لنا من كنوز الأرض، فله الحمد
والشكر، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله
أجمعين. وبعد:

فإن الله - عز وجل - قسم الأرزاق بعلمه، فأعطى
من شاء بحكمته، ومنع من شاء بعدله، وجعل بعض
الناس لبعض سخرياً، قال الله - تعالى -: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا
بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ
لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

ولأن أمر المال عظيم، والسؤال عنه شديد؛ لقول
النبي ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل
عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه

أبلاه، وعن ماله من أين أكتسبه وفيما أنفقه، وعن عمله ماذا عمل فيه» أقدم الجزء (الحادي والعشرين) من سلسلة «أين نحن من هؤلاء؟».

جعل الله سعينا في هذه الدنيا سعياً مباركاً، وجعله عوناً على الطاعة.

عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

مدخل

فرض الله - عز وجل - على عباده الاكتساب
 لطلب المعاش؛ ليستعينوا به على طاعته، قال -
 تعالى -: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ
 تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]. فجعل - سبحانه - الاكتساب
 سبباً للعبادة.

وقال - تعالى - عن الإنسان ومحبته للمال:
 ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وقال - عز وجل - أمراً بعباده بعد انقضاء فريضة
 عظيمة هي صلاة الجمعة:

﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

قال الإمام البغوي: أي إذا فرغ من الصلاة
 فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في
 حوائجكم. ^(١)

(١) مختصر تفسير البغوي ٩٤٥ / ٢.

وكان عراك بن مالك - رضي الله عنه - إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فرضك، وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين»^(١).

وقد حث الإسلام على العمل والإكتساب، فهو دين العمل والحركة والسعي في الأرض وعمارتها. قال ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله، أعطاه أو منعه»^(٢).

وأثنى النبي ﷺ على المال الصالح في يد العبد الصالح فقال: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»^(٣). ولم تُذم الدنيا لذاتها، إنما لما يقع فيها من المعاصي، والذنوب، وأكل المال الحرام، فالدنيا

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٧١.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه أحمد.

الحرام: الصارفة عن الدين، المجموعة من الحرام.
 أي أن تجمعها من الحرام، وتجعلها في الحرام.
 قال ﷺ: «الدنيا لأربعة رجال، رجل جمع المال
 من حلّه وأنفقه في حقه فهذا بأرفع المنازل»^(١).
 ورجل جمع المال من غير حلّه، وأنفقه في حقه
 فهذا بأخبث المنازل.
 ورجل جمع المال من غير حلّه، وأنفقه في حقه
 فهذا بأخبث المنازل.
 ورجل جمع المال من حلّه، وأنفقه في غير حقه
 فهذا بأخبث المنازل»^(١).

ويحتم العمل ويجب الاكتساب على من كان له
 عيال، أو كانت له مسؤولية. فقد جعل الإسلام
 التقصير في حق الزوجة، والأطفال، والوالدين من
 الذنوب العظيمة فعن وهب بن جابر قال: شهدت
 عبدالله بن عمرو بن العاص في بيت المقدس وأتاه

(١) رواه الترمذي.

مولى له فقال: إني أريد أن أقيم هذا الشهر هاهنا - يعني رمضان - قال له عبدالله: هل تركت لأهلك ما يقوتهم؟ قال: لا، قال: أمّا لا فارجع، فدع لهم ما يقوتهم، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»^(١).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله ﷺ إذا نظر إلى رجل فأعجبه، قال: «هل له من حرفة؟» فإن قالوا: لا، سقط من عينه، قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «لأن المؤمن إذا لم يكن ذا حرفة تعيَّس بدينه»^(٢).

والمسلم يؤجر على قوت عياله كما قال ﷺ: «دينارٌ أنفقته في سبيل الله، ودينارٌ أنفقته في رقبة، ودينارٌ تصدّقت به على مسكين، ودينارٌ أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»^(٣).

(١) رواه أبو داود.

(٢) كتاب الجامع ١/ ٣٤.

(٣) رواه مسلم.

وروى عن سفيان الثوري - رحمه الله - أنه قال:
عليك بعمل الأبطال. الكسب من الحلال، والإنفاق
على العيال.

وكان إذا أتاه الرَّجُل يطلب العلم سألَه هل لك
وجه معيشة؟ فإن أخبره أنه في كفاية، أمره بطلب
العلم، وإن لم يكن في كفاية أمره بطلب المعاش.
وقال أيوب السَّخْتِيَانِي: قال لي أبو قلابة: يا أيوب،
إلزم سوقك، فإن فيها غنى عن الناس وصلاًحاً في الدين.

وعن محمد بن سيرين عن أبيه قال: صليت مع
عمر بن الخطاب المغرب، وانصرف معه جماعة من
قريش، فرأى تحت إبطي رزمة فقال: ما هذا يا بن
سيرين؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، آتي إلى السوق
فأشتري وأبيع، فالتفت إلى جماعة من قريش فقال:
لا يغلبنكم هذا وأشباهه على التجارة؛ فإن التجارة
ثلث الإمارة.^(١)

(١) تاريخ عمر: ص ٢١٤.

وقال أبو سليمان الداراني: ليست العبادة أن تصف قدميك وغيرك يقوت لك، ولكن ابدأ برغيفك فأحرزها، ثم تعبد^(١).

والمال في يد الإنسان المسلم طريق إلى الحياة الكريمة في الدنيا، والسعادة في الآخرة؛ لأنه كما قال سعيد بن المسيب: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يعطي منه حقه، ويكف به وجهه عن الناس^(٢).

وقال ابن قدامة في تفصيل دقيق لحال طالب الدنيا: قد بينا أن المال لا يذم لذاته، بل ينبغي أن يمدح؛ لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا، وقد سماه الله - تعالى - خيراً، وهو قوام الآدمي. قال الله - تعالى - في أول سورة النساء: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: ٥].

(١) الإحياء ١٧٢/٢.

(٢) السير ٢٣٨/٤.

وقال أبو إسحاق السبيعي: كانوا يرون السعة عوناً على الدين.

وقال سفيان: المال في زماننا هذا سلاح المؤمنين.

وحاصل الأمر: أن المال مثل حية فيها سم وترياق، فترياقه فوائده، وغوائله سمه، فمن عرف فوائده، أمكنه أن يحترز من شره، ويستدر من خيره. (١)

أخي المسلم:

اعلم أنَّ المال لا يُذم لذاته، بل يقع الذم لمعنى من الآدمي، وذلك المعنى إما لشدة حرصه، أو تناوله من غير حلّه، أو حبسه عن حقه، أو إخراجه في غير وجهه، أو المفاخرة به، ولهذا قال الله - تعالى -: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥].

وفي سنن الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال:

«ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»^(١).

وقد كان السلف يخافون فتنة المال. وكان عمر - رضي الله عنه - إذا رأى الفتوح يبكي ويقول: ما حبس الله هذا عن نبيه ﷺ وعن أبي بكر لشرٍ أرادته الله بهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له.

وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه؛ فإنه إن لدغك قتلك سمه. قيل: ما رقيته؟ قال: أخذه من حلّه، ووضعه في حقّه.

وقال في صاحب حق المال: مصيبتان للعبد في ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلهما، قيل: ما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويُسأل عنه كله.^(٢)

ودين الإسلام دين التوكل لا التواكل، ودين السعي لا الخمول.

(١) رواه الترمذي.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٢١٣.

قال عمر - رضي الله عنه -: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول اللهم أرزقني؛ فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.^(١)

وقال محمد بن المنكدر في كلمات جميلة عن المال: نعم العون على تقوى الله - عز وجل - الغنى.^(٢)
أخي المسلم:

هي القناعة لا تبع بها بدلاً
فيها النعيم وفيها راحة البدن
انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها
هل راح منها بغير القطن والكفن^(٣)

أخي الحبيب :

اعلم أنه ليس من الزهد ترك المال، وبذله على سبيل السخاء والقوة واستمالة القلوب، إنما الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة،

(١) الإحياء ٧١/٢.

(٢) حلية الأولياء ١٤٩/٢.

(٣) التذكرة ص ١٠٢.

ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب، والآخرة كالدر يبقى، قويت رغبته في بيع هذه بهذه.^(١)

وقد كان زهد السلف في الدنيا خوف الوقوع في الحرام، قال مزمل: دخلت على سفيان وهو يأكل طبهاج (اللحم المشرح) بيض فكلمته في ذلك، فقال: لم آمركم أن لا تأكلوا طيباً، اكتسبوا طيباً وكلوا.^(٢)

وقال علي بن الفضيل: سمعت أبي وهو يقول لابن المبارك: أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، كيف ذا؟ فقال ابن المبارك: يا أبا علي إنما أفعل ذا؛ لأصون به وجهي، وأكرم به عرضي، وأستعين به على طاعة ربي.^(٣)

(١) منهاج القاصدين ص ٣٥٥.

(٢) السير ٢٧٧/٧.

(٣) تاريخ بغداد ١٠/١٦٠.

أسباب الرزق

أسباب الرزق كثيرة متنوعة من أهمها: لزوم التقوى، قال الله - تعالى -: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الاعراف: ٦٩]. وقال - تعالى - في ذكر الاستغفار والتوبة وفوائدهما: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٢﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِ وَجَنَّتْ لَكُمْ جَنَّتٌ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٠].

ومن أعظم الأسباب الجالبة للرزق: ترك الذنوب والمعاصي، فإنها تحرم خيري الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠] أي بجنايتكم على أنفسكم، فقد سمى جناية المرء على نفسه كسباً.

وقال ﷺ: «إن الرجل ليُحرَم الرزق بالذنب يصيبه»^(١).

قيل لرجل من الفقهاء: من يتق الله يجعل له مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، فقال الفقيه: والله، إنه ليجعل لنا المخرج، وما بلغنا من التقوى ما هو أهله، وإنه ليرزقنا وما اتقينا، وإنا لנرجو الثالثة، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجراً.^(٢)

وقال بعض السلف متعجباً ممن يعصي الله - عز وجل - كيف يرزقه الكريم الحليم، فقال: عجبت لمن يصلي الصبح بعد طلوع الشمس كيف يرزق؟!
أين نحن من هؤلاء:

لم تكن الدنيا أكبر همهم ومبلغ سعيهم، فلم تلهم، كانوا يعرفون نعم الله - عز وجل - الأخرى، وأعظمها وأهمها، وأكملها وأتمها نعمة الإسلام، ثم

(١) رواه أحمد.

(٢) حلية الأولياء ٢٤٨/٤.

نعمة الصحة والعافية، والأمن في الأوطان: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

عن الحسن بن صالح قال: ربّما أصبحت ما معي درهم، وكأن الدنيا كلها قد حيزت لي^(١).

ولقد كان ارتباطهم بالله عز وجل قوياً، وخوفهم من المعاصي شديداً، ولهذا يرون أثر المعاصي لقلتها في دوابهم وزوجاتهم وأبنائهم!

فقد أغلظ رجل لوكيع بن الجراح، ثم دخل وكيع بيتاً فعفر وجهه بالتراب، ثم خرج إلى الرجل فقال: زد وكيعاً بذنبه، فلولاه ما سُلّطت عليه^(٢).

وكان المال وسيلة عندهم، والمال والمنتهى والمطلب هو جنة عدن، ولهذا تدور إجاباتهم وهمومهم على الآخرة، فهي غاية المطالب، وأسمى المنازل.

قيل لأبي حازم الزاهد ما مالك؟ قال:

(١) تذكرة الحفاظ ٢١٧/١.

(٢) تاريخ بغداد ٥٠٣/١٣.

مالان، لا أخشى معهما الفقر: الثقة بالله، واليأس مما في أيدي الناس.^(١)

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس
واقنع بيأس فإن العز في اليأس
واستغني عن ذي قربي وذو رحم

إن الغني من استغنى عن الناس^(٢)
ومن يسر الله له المال، وساق إليه الخيرات،
فليشكر الله على نعمه، وليستعملها في طاعته،
ويفرقها ذات اليمين والشمال في أصحاب الحقوق،
وقضاء الحوائج.

قال ابن تيمية: «ثم ينبغي له أن يأخذ المال بسخاوة
نفس؛ ليبارك له فيه، من غير أن يكون له في القلب
مكانة. والسعي فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء».

ثم قال - رحمه الله -: «فيكون المال عنده يُستعمل
في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي

(١) جامع العلوم والحكم ص ٣٥٣.

(٢) مكاشفة القلوب ص ١٨١.

يجلس عليه، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته من غير أن يستعبده، فيكون هلوياً، إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً.

ورزق الله مكتوب مقدر، لا يجلبه حرص حريص، ولا يدفعه كسل كسول، فإن الله - عز وجل - قسم الأرزاق بعلمه وعدله، ولهذا كفر من قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ إنما هي منحة ربانية؛ لئبتي عباد بها!

قالت مريم البصرية: ما أهتممت بالرزق ولا تعبت في طلبه منذ سمعت الله - عز وجل - يقول: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].
أخي المسلم :

إذا سُدَّ باب عنك من دون حاجةٍ فدعه لأخرى يفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه
ويكفيك سوات الأمور اجتنابها

ولاتك مبدالاً لعرضك واجتنب

ركوب المعاصي يجتنبك تقلبها^(١)

وحذر النبي ﷺ أن تكون الدنيا وطعامها همّ المسلم وديده في ليله ونهاره، تشغله عن الطاعة، وتصرفه عن العبادة، قال ﷺ: «من أصبح والدنيا أكبر همّه، جعل الله فقره بين عينيه، وشئت عليه شمله، ولم يأت من الدنيا إلا ما قُدِّر له، ومن أصبح والآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، وكان الله بكل خير إليه أسرع»^(٢).

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى -: فهذا هو الفقر الحقيقي والغنى الحقيقي، وإذا كان هذا غنى من كانت الآخرة أكبر همه فكيف من كان الله - سبحانه - أكبر همه؟ فهذا من باب التنبيه والأولى^(٣).

(١) الإحياء ٢٥٤/٣.

(٢) رواه الترمذي وصححه الألباني.

(٣) طريق الهجرتين ص ٤٥.

وقد وردت آيات كثيرة نصت على الترف والمترفين، وسوء ذلك على نفوس الكثير، قال تعالى -: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٤] وقال - تعالى - عن أصحاب الشمال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ [الواقعة: ٤٥] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦] وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤].

والأمر في الأموال والدور والقصور، مثلما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تصنيفه لفئات الناس مع المال: «والفقر يصلح عليه خلق كثير، والغنى لا يصلح عليه إلا أقل منهم، ولهذا كان أكثر ما يدخل الجنة المساكين؛ لأن فتنة الفقر أهون، وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر، لكن لما كان في السراء اللذة وفي الضراء الألم، اشتهر ذكر الشكر في السراء والصبر في الضراء».

ولهذا مال الإنسان محدود الفائدة في ذاته، إما لقمة يأكلها، أو ثوباً يلبسه أو مركباً يركبه، أما من أراد به الله الخير فهو ينفق منه، ويتصدق ويواسي ويفرج، فهذا نعم المال!

قال ﷺ: «يقول ابن آدم مالي! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»^(١).

قال يحيى بن معاذ: مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة^(٢).

ومن هذا الخوف والوجل كانوا يحتاطون لأنفسهم، ويحاسبونها؛ رغبة في النجاة، وخوفاً من الوقوع في الهلاك.

قال خرمي بن يونس: سمعت أبا يوسف الغولي يقول: أنا أتفقه في مطعمي من ستين سنة. وكان أبو حنيفة خزازاً يبيع الخبز، فروي أن رجلاً

(١) رواه مسلم.

(٢) تاريخ بغداد ٢١٢/١٤.

جاءه فقال: يا أبا حنيفة قد احتجت إلى ثوب خز، فقال: مالونه؟ قال: كذا وكذا، قال: اصبر حتى يقع، وأخذه لك، فما دارت الجمعة حتى وقع، فجاءه الرجل فقال له أبو حنيفة: قد وقعت حاجتك، ثم أخرج إليه ثوباً فأعجبه، فقال: يا أبا حنيفة كم أزن للغلام؟ فقال: درهماً، فقال: أتتهزأ بي قال: لا والله إنني اشتريت ثوبين بعشرين ديناراً ودرهم، فبعت أحدهما بعشرين ديناراً، وبقي هذا بدرهم، وما كنت لأربح على صديق. فأخذه! ^(١).

قال سفيان الثوري: أنظر درهمك من أين هو، وصل في الصف الأخير ^(٢).

وقال محمد بن سيرين: كان يقال: المتعلم المسلم عند الدرهم ^(٣).

وغالب الناس اليوم ينطبق عليهم قول الشاعر:

(١) مناقب أبي حنيفة للموفق ١/ ١٩٦.

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٦٨.

(٣) الزهد البيهقي ص ٣٦٢.

نُرقع دنانا بتمزيق ديننا
فلا ديننا يبقى ولا مائِرقع
ولهذا قلت الدمعة في المآقي، وندر البكاء من
خشية الله.

قال سهل - رحمه الله -: لا تجد الخوف حتى
تأكل الحلال^(١).

وعندما رأى عطاء بن يسار رجلاً في المسجد
فدعاه فقال: هذه سوق الآخرة، فإن أردت البيع
فأخرج إلى سوق الدنيا^(٢).

وروى عن خالد البلوي قال: جاء رجل إلى أبي
حنيفة فقال: أرشدت إليك تبيعني ثوبين أريدهما
لأمي وزوجتي، وأحسن بيعي، فقال له، أي لون
تريد؟ فوصف له. فقال: انتظرني جمعيتين، قال:
نعم. فذهب، ثم جاء بعد ذلك فدفع إليه ثوبين
وديناراً واحداً وقال: إني لم أخسر عليك، إني

(١) الإحياء ١٧٠/٤٠.

(٢) الورع لعبد الله بن حنبل ص ٥١.

جعلت لك بضاعة فرزقت من عند الله - عز وجل - ، فأحمده . فقلت له ، أو قيل له : يا أبا حنيفة هل ذكرت بينكما معرفة قديمة ؟ قال : لا . ألم تسمع إلى قوله : (وأحسن بيعي) .

قال سعيد بن جبير : إذا قال الرجل للرجل : أحسن بيعي فقد ائتمنه ، فلم أكن أبقى من الإحسان شيئاً إلا أتيته ؛ لتسلم لي أماتي^(١) .

وعن علي بن حفص البزاز قال : كان حفص بن عبدالرحمن شريك أبي حنيفة ، وكان أبو حنيفة يجهز عليه ، فبعث إليه في رفقة بمتاع ، وأعلمه أن في ثوب كذا وكذا عيباً ، فإذا بعته فبيّن . فباع حفص المتاع ونسي أن يبيّن ولم يعلم ممن باعه ، فلما علم أبو حنيفة تصدق بثمان المتاع كله^(٢) .

أخي الحبيب؛ أين نحن من هؤلاء؟:

قال مسلمة بن عبدالملك : دخلتُ على عمر بن

(١) مناقب أبي حنيفة للموفق ٢٤١/١ .

(٢) تاريخ بغداد ٣٥٨/١٣ .

عبدالعزیز بعد الفجر فی بیت کان یخلو فیہ بعد الفجر، فلا یدخل علیہ أحدٌ، فجاءته جاریة بطبق علیہ تمرٌ صیحانی، وكان یُعجبه التمر، فرفع بکفِّه منه، فقال: یا مسلمة، أترى لو أن رجلاً أكل هذا، ثم شرب علیہ من الماء - علی التمر طیب - أكان مُجزئه إلى اللیل؟ قلتُ: لا أدري. قال: فرفع أكثر منه، فقال: هذا؟ قلتُ: نعم یا أمیر المؤمنین، كان کافیه دون هذا، حتی ما یُبالي أن لا یذوق طعاماً غیره. قال: فعلامَ یدخل النار؟ قال مسلمة: فما وقعت منی موعظة ما وقعت هذه^(١).

وعن مزمل قال: سمعت وهیباً (ابن الورد) یقول: لو قمت قیام هذه الساریة ما نفعت حتی تنظر ما یدخل بطنک حلال أو حرام.

وعندما نظر حذیفة المرعشی إلى الناس یتبادرون إلى الصف الأول، فقال: ینبغي أن یتبادروا إلى أكل

(١) الورع لأحمد ص ٦٣.

خبز الحلال، ولا يُتبادر إلى الصف الأول^(١).
والشيطان في صراع وجهاد لإغواء المسلم وصدّه
عن سبيل الله.

قال يوسف بن أسباط: إذا تعبد الشاب يقول
إبليس: انظروا من أين مطعمه؟ فإن كان مطعمه
مطعم سوء، قال: دعوه، لا تشتغلوا به، دعوه
يجتهد وينصب، فقد كفاكم نصيبه^(٢).

وقد يجعل الله - عز وجل - نعمة المال استدراجاً
لمن عصاه وخالف أمره، كما سمعنا ذلك عن أمم
سابقة، ورأينا ذلك في أمم ودولٍ معاصرة، قال
- تعالى -: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً
مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ
اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

قال شعيب بن حرب: لا تحقرنّ فلساً تطيع الله

(١) الزهد للبيهقي ص ٢٥٣.

(٢) الزهد للبيهقي ص ٣٥٩.

في كسبه، ليس الفلاس يراد، إنما الطاعة تراد، عسى أن تشتري به بقاءً فلا يستقر في جوفك حتى يغفر لك^(١).

أرى حُللاً تُصان على أناس
وأخلاقاً تداس فلا تصانُ
يقولون الزمان به فساد
وهم فسدوا، وما فسد الزمان
قال بعض السلف: لترك دينار مما يكره الله،
أحب إلي من خمس مائة حجة^(٢).
ولهذا قال الحسن: رأيت سبعين بدرية كانوا فيما
أحلَّ الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم^(٣).

المال يذهب حلَّه وحرامه
طراً ويبقى في غدٍ آثامه

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٠.

(٢) الورع لابن أبي الدنيا.

(٣) حلية الأولياء ٤/ ٢٥٥.

ليس المتقي بمتق لإلهه
حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب ما تحوى وتسكب كفه
ويكون في حسن الحديث كلامه^(١)
أما صدق الحديث في البيع والشراء فإنك ترى
العجب من حال أولئك!

حدثنا زياد بن الربيع عن أبيه: قال رأيت
محمداً بن واسع يمر ويعرض حماراً له على البيع
فقال له رجل: أترضاه لي؟ قال: لو رضيته لم
أبعه^(٢).

وجاء مجمع التيمي بشاة يبيعها، فقال: إني
أحسب أو أظن في لبنها ملوحة^(٣).

وجاء يوسف بن عبيد بشاة، فقال: بعها وابراً من

(١) حلية الأولياء ٣٤٩/٢.

(٢) الورع لابن أبي الدنيا ص ١٠٤.

(٣)

أنها تقلب المعلف، وتنزع الوتد، ولا تبرأ بعد ما
تبيع، بين قبل أن تبيع^(١).
أين نحن من هؤلاء؟!

عن السري بن يحيى قال: لقد ترك ابن سيرين
ربح أربعين ألفاً في شيء دخله^(٢).

وعن ميمون بن مهران: لا يكون الرجل تقياً حتى
يكون لنفسه أشد محاسبةً من الشريك لشريكه،
وحتى يعلم من أين ملبسه، ومطعمه، ومشربه^(٣).

وكانت الزوجة والابنة الصالحة تعين على الحلال
واستطابة المطعم.

قالت ابنة العدوية لأبيها:

ياأبه، لست أجعلك في حلٍ من حرام تطعمنيه.

فقال لها: أرايت إن لم أجد إلا حراماً.

قالت: نصبر في الدنيا على الجوع، خير من أن

(١) الورع لابن أبي الدنيا ص ١٠٤.

(٢) صفة الصفوة ٣/ ٢٤٤.

(٣) السير ٥/ ٧٤.

نصبر في الآخرة على النار.

وقال المعافى بن عمران: كان عشرة فيمن مضى من أهل العلم، ينظرون في الحلال النظر الشديد، لا يدخلون بطونهم، إلا ما يعرفون من الحلال، وإلا استقوا التراب، ثم عد بشر، وإبراهيم بن أدهم، وسليمان الخواصر، وعلي بن الفضيل، وأبا معاوية الأسود، ويوسف بن أسباط، وهيب بن الورد، وحزيفة شيخ من أهل حران، وداود الطائي، فعد عشرة كانوا لا يدخلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال، وإلا استقوا التراب^(١).

وكان بشرٌ يقول: ينبغي للرجل أن ينظر خبزه من أين هو؟ ومسكنه الذي سكنه أصله من أي شيء؟ ثم يتكلم^(٢).

وقال علي بن شعيب، قال لي أبي: كنت قلت عند فلان، قال: فقال لي: أكلت عنده؟ قلت: نعم

(١) الورع للإمام أحمد ص ١٠.

(٢) الورع للإمام أحمد ص ١٠.

قال: أَحْمِذْ رَبِّكَ، أَكَلْتُ مَا لَا تُسْأَلُ عَنْهُ، يَعْنِي عَنْ كَسْبِهِ^(١).

وقال أبو يوسف الغسولي: إنه ليكفيني في السنة اثنا عشر درهماً، في كل شهر درهم، وما يحملني على العمل إلا أَلْسَنَةُ هؤلاء القراء، يقولون: أبو يوسف من أين يأكل؟

وكان يقول: أنا أتفقه في مطعمي من ستين سنة. وسأل خلف بن تميم، إبراهيم بن أدهم فقال: منذ كم قدمت الشام؟ قال: منذ أربع وعشرين سنة، ما جئت لرباط ولا لجهاد، جئت لأشبع من خبز حلال.

وقال ابن المبارك: رد درهم من شبهة أحب إلي من أن أتصدق بمائة ألف درهم، ومائة ألف، حتى بلغ إلى ستمائة ألف^(٢).

(١) الورع للإمام أحمد ص ١٠.

(٢) الإحياء ١٠٣/٢.

وتأمل في سؤال فقهي: ليس المراد الجواب.. بل في السؤال تحرّز وبراءة للذمة!
سُئل الإمام أحمد عن الرجل يكون معه ثلاثة دراهم منها درهم لا يعرفه. قال - رحمه الله -: لا يأكل منها شيئاً حتى يعرفه.

وكان الحجاج بن دينار قد بعث طعاماً إلى البصرة مع رجل، وأمره أن يبيعه يوم يدخل لسعر يومه، فأتاه كتابه أني قدمت البصرة فوجدت الطعام منقصاً فحبسته، فزاد الطعام، فازددت كذا وكذا، فكتب إليه الحجاج: إنك قد ختتنا، وصلت بخلاف ما أمرناك به، فإذا أتاك كتابي فتصدّق بجميع ذلك الثمن - ثمن الطعام - على فقراء البصرة، فليتني أسلم إذا فعلت ذلك^(١).

وكانوا يتواصون بالحرص على القليل من الحلال؛ ففيه غنية وبركة..

(١) جامع العلوم والحكم ص ١٣٢.

قال بشر بن الحارث: ما ينبغي للرجل أن يشبع اليوم من الحلال؛ لأنه إذا شبع من الحلال دعت نفسه إلى الحرام، فكيف على هذه الأقدار اليوم^(١)؟!

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره
فسوف لعمري على قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرةً
وأن أقبلت كانت كثيرة همومها^(٢)

أخي المسلم:

كان عمرو بن قيس الملائي إذا نظر إلى أهل السوق قال: ما أغفل هؤلاء عما أُعد لهم^(٣)!
وكان يونس بن عبيد يشتري الأبرسيم في البصرة، فيبعث به إلى وكيله بالسوس، وكان وكيله يبعث إليه

(١) الورع للإمام أحمد ص ٧.

(٢) الإحياء ٢٢١/٣.

(٣) صفة الصفوة ١٢٤/٣.

بالخز، فإن كتب وكيله إليه أن المتاع عندهم زائد لم يشتر منهم أبداً، حتي يخبرهم أن وكيله كتب إليه أن المتاع عندهم زائد^(١).

أخي الحبيب :

يريد المرء أن يعطى مناه
ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي
وتقوى الله أفضل ما استفادا
جاء رجل من أهل الشام من سوق الخزازين، فقال
المطرف بأربعمائه، فقال يونس بن عبيد: عندنا
بمئتين، فنادى المنادي بالصلاة، فانطلق يونس إلى
بني قشير؛ ليصلي بهم، فجاء وقد باع ابن أخته
المطرف من الشامي بأربعمائه، فقال يونس: ماهذه
الدراهم؟ قال: ذاك المطرف بعناه من ذا الرجل،
قال يونس: يا عبدالله هذا المطرف الذي عرضت

(١) حلية الأولياء ١٥/٣.

عليك بمائتي درهم فإن شئت خذه، وخذ مائتين وإن شئت فدعه^(١).

حدّث: أحمد بن حفص: دخلت على أبي الحسن. يعني إسماعيل. والد إبراهيم عبد الله البخاري عند موته، فقال: لا أعلم من مالي درهماً من حرام. ولا درهماً من شبهة.

قال أحمد: فتصاغرت إليّ نفسي عند ذلك، ثم قال أبو عبد الله: أصدق ما يكون الرجل عند الموت^(٢).
ورحم الله الصحابي الجليل أبا الدرداء إذ يقول:
من فقه الرّجل المسلم استصلاحه معيشته.

وقال - رضي الله عنه - صلاح المعيشة من صلاح الدّين، وصلاح الدّين من صلاح العقل.
وقال: ليس من حُبِّك الدُّنيا التماسك بما يصلحك منها^(٣).

(١) حلية الأولياء ١٥/٣.

(٢) السير ٤٤٧/١٢.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ١٥/٢.

وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - موجّهاً
القرّاء: يا معشر القرّاء، استبقوا الخيرات، وابتغوا
من فضل الله، ولا تكونوا عيالاً على الناس^(١).

ويحكى عن مبارك أبي عبدالله: أنّه كان يعمل في
بستان لمولاه، وأقام فيه زماناً، ثمّ أنّ مولاه صاحب
البستان - وكان أحد تجّار همذان - جاءه يوماً، وقال
له:

يا مبارك، أريد رُمّاناً حُلّواً.

فمضى مبارك إلى بعض الشجر، وأحضر منها رُمّاناً،
فكسره مولاه، فوجده حامضاً، فحرّد عليه، وقال:
أطلب الحُلّو فتحضّر لي الحامض! هات حُلّواً.

فمضى وقطع من شجرة أخرى، فلما كسره سيّده
وجده أيضاً حامضاً، فاشتدّ حرّده عليه، وفعل ذلك
مرّةً ثالثةً، فذاقه، فوجده أيضاً حامضاً، فقال له بعد ذلك:

أنت ما تعرف الحُلّو من الحامض؟
فقال: لا.

(١) جامع بيان العلم وفضله ١٥/٢.

فقال: وكيف ذلك؟

فقال: لأنِّي ما أكلت منه شيئاً حتى أعرفه.

فقال: وَلِمَ لَمْ تَأْكُلْ؟

قال: لأنَّكَ ما أذنت لي بالأكل منه.

فعجب صاحبُ البُستانِ من ذلك، ولمَّا تبيَّن له
صِدْقُ عَبْدِهِ؛ عَظُمَ في عينه، وزاد قَدْرُهُ عنده.
وكانت له بِنْتُ خُطِيبٍ كَثِيرًا، فقال له: يا مبارك، من
ترى تُزَوِّج هذه البنت؟

فقال: أهل الجاهليَّة كانوا يزوّجون للحَسَبِ،
واليهود للمال، والنَّصارى للجمال، وهذه الأُمَّة
للدين.

فأعجبه عقله، وذهب فأخبر به زوجته، وقال لها:

ما أرى لهذه البنت زوجاً غير مبارك.

فتزوَّجها، وأعطاهما أبوها مالاً كثيراً، فجاءت
بعبدالله بن المبارك، العالم، المحدث، الزاهد،
المجاهد، الذي كان أكرمَ ثمرةِ زواجٍ على أبويه في
آفاق زمانه، حتى قال فيه الفضيل بن عياض - رحمه

الله تعالى - ويقسم على قوله: «وربَّ هذا البيت، ما رأت عيناى مثل ابن المبارك»^(١).

واليوم وقد كثر الغش، والخداع، في واقع حياة بعض الناس، ندر أن تجد الصادق الصدوق في أداء الأمانة، المبتعد عن الغش والخديعة!

وإن كانت نتيجة المعصية واضحة معلومة في الآخرة، فإن مآلها في الدنيا أقرب!

ذكر أنّ عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - نهى في خلافته عن مَذَق اللّبن بالماء (أي مزجه به)، فخرج ذات ليلة في حواشي المدينة، فإذا بامرأة تقول لابنة لها: ألا تمذقين لبنك فقد أصبحت؟

فقلت الجارية: كيف أمذّق وقد نهى أمير المؤمنين عن المَذَق؟

فقلت: قد مَذَق الناس فامذّقي، فما يدري أمير المؤمنين؟

(١) وفیات الأعيان ٢/ ٢٣٧ والتبر المسبوك ص ٨٥.

فقالت: إن كان عمر لا يعلم، فإنه عمر يعلم، ما كنتُ لأفعله وقد نهى عنه.

فوقعت مقالتها من عمر، فدعا عاصماً ابنه، فقال: يا بُني، اذهب إلى موضع كذا وكذا، فاسأل عن الجارية - ووصفها له -.

فذهب عاصم، فإذا هي جارية من بني هلال، فقال له عمر:

اذهب يا بُني، فتزوجها، فما أحرأها أن تأتي بفارس يسود العرب.

فتزوجها عاصم بن عمر، فولدت له أمَّ عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، فتزوجها عبدالعزيز بن مروان بن الحكم، فأنت بعمر بن عبدالعزيز^(١).

وأما أثر المال الحرام فواضح، حتى وإن كان المال قليلاً والرجل مجاهداً..

عن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه -

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن عبدالحكم ص ٢٢.

قال: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد حتى مروا على رجل فقالوا: فلان شهيد، فقال النبي ﷺ: «كلا إني رأيته في النار في بُردٍ غلها - أو عباءة -»^(١).

أين نحن من هؤلاء؟

قال بشر بن المفضل: جاءت امرأة بمطرف خز إلى يونس بن عبيد تعرضه عليه، فقال لها: بكم؟ قالت: بستين درهما، فألقاه إلى جاره، فقال: كيف تراه؟ قال بعشرين ومئة، قال: أرى ذلك ثمنه، أو نحواً من ثمنه، فقال لها: اذهبي فاستأمري أهلِكَ في بيعه بخمسة وعشرين ومئة، قالت: قد أمروني أن أبيعهُ بستين، قال: ارجعي فاستأمريهم^(٢).

وحُمِلَ إلى الإمام البخاري بضاعة أنفذها إليه أبو حفص أحد أخص تلامذة أبيه، فاجتمع بعض التجار إليه بالمعيشة وطلبوها منه بربح خمسة آلاف درهم.

(١) رواه مسلم.

(٢) السير ٢٩٠/٦ وحلية الأولياء ١٦/٣.

فقال لهم: انصرفوا الليلة. فجاءه الغد تجار آخرون فطلبوا منه البضاعة بربح عشرة آلاف درهم، فردّهم، وقال إني نويت البارحة أن أدفعها إلى الأولين، فدفعها إليهم وقال: لا أحب أن أنقض نيتي^(١).

فكان - رحمه الله - يريد أن يعود نفسه على الإيثار، والبعد عن حب المال الذي يعد من الصفات القبيحة.

كم رأينا من جمع المال ولم يتمتع به فأبقاه لغيره وأفنى نفسه كما قال الشاعر:

كدودة القز ما تبنيه يهدمها
وغيرها بالذي تبنيه ينتفع

لما رأى المتيقّظون سطوة الدنيا بأهلها، وخداع الأمل لأربابه، وتملك الشيطان، وقياد النفوس،

(١) مقدمة الفتح ص ٧٤٩.

ورأوا الدولة للنفس الأمارة، لجأوا إلى حصن
التضرُّع والالتجاء كما يأوي العبد المذعور إلى حرم
سيده^(١).

أخي المسلم:

ما أخذ العبد ما حرم عليه إلا من جهتين:
إحدهما: سوء ظنه بربه، وأنه لو أطاعه وآثره لم
يعطه خيراً منه حلالاً.

والثانية: أن يكون عالماً بذلك، وأن مَنْ ترك شيئاً
أعاضه خيراً منه، ولكن تغلب شهوته صبره، وهواه
عقله. فالأول من ضعف علمه، والثاني من ضعف
عقله وبصيرته.

قال يحيى بن معاذ: مَنْ جمع الله عليه قلبه في
الدعاء لم يرده.

قلت: إذا اجتمع عليه قلبه، وصدقت ضرورته
وفاقته، وقوي رجاءه، فلا يكاد يُردُّ دعائه^(٢).

(١) الفوائد ص ٦٢.

(٢) الفوائد ص ٦٢.

قال الحسن: إِنَّ هذه المكاسب قد فسدت،
فخذوا منها القوة، أي شبه المضطر^(١).

* * *

(١) الورع لابن أبي الدنيا ص ١١١.

كثرة المال ونتاجه

قال - عز وجل -:

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

فالأموال والدور والقصور متاع قليل.. سنوات تمضي، وأيام تنتهي، وأنفاس لا تعود! ثم الحساب والجزاء..

قال خالد بن صفوان: بتّ ليلتي، أتمنى، فكسبت البحر الأخضر، والذهب الأحمر، فإذا يكفيني من ذلك رغيفان، وكوزان، وطمران^(١).

وقال إسحاق بن جبلة: دخل الحسن بن صالح يوماً السوق، وأنا معه، فرأى هذا يخطط، وهذا

(١) أدب الدنيا والدين ص ١٢١.

يصبغ، فبكى وقال: انظر إليهم يتعلّلون حتى يأتيهم الموت^(١).

قال الحسن: والله، ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر له فيها، إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه، وما أمسكها الله عن عبد، فلم يظن أنه خير له فيها، إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه^(٢).

وكان همهم الآخرة وعيونهم تجاه يوم عظيم..
قال موسى بن المغيرة: رأيت محمداً بن سيرين يدخل السوق نصف النهار، يكبر ويسبح ويذكر الله - عز وجل - فقال له رجل: يا أبا بكر في هذه الساعة؟ قال: إنها ساعة غفلة^(٣).

وقال مالك بن دينار: اتخذ طاعة الله تجارة،

(١) السير ٢٧٠ / ٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٧٤ / ٦.

(٣) صفة الصفوة ٢٤٥ / ٣.

تأتك الأرباح من غير بضاعة^(١).

أخي المسلم:

فَرَّغْ خَاطِرَكَ لِلَّهِ بِمَا أُمِرْتَ بِهِ، وَلَا تَشْغَلْهُ بِمَا ضُمِّنَ لَكَ، فَإِنَّ الرِّزْقَ وَالْأَجَلَ قَرِينَانِ مُضْمُونَانِ. فَمَا دَامَ الْأَجَلُ بَاقِيًا، كَانَ الرِّزْقُ آتِيًا. وَإِذَا سَدَّ عَلَيْكَ بِحِكْمَتِهِ طَرِيقًا مِنْ طَرَفِهِ، فَتَحْ لَكَ بِرَحْمَتِهِ طَرِيقًا أَنْفَعَ لَكَ مِنْهُ. فَتَأَمَّلْ حَالَ الْجَنِينِ يَأْتِيهِ غِذَاؤُهُ، وَهُوَ الدَّمُ، مِنْ طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ وَهُوَ السَّرَّةُ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ بَطْنِ الْأُمِّ وَانْقَطَعَتْ تِلْكَ الطَّرِيقُ فَتَحَ لَهُ طَرِيقَيْنِ اثْنَيْنِ، وَأَجْرَى لَهُ فِيهِمَا رِزْقًا أَطِيبَ وَأَلَذَّ مِنَ الْأَوَّلِ، لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا. فَإِذَا تَمَّتْ مَدَةُ الرِّضَاعِ، وَانْقَطَعَتْ الطَّرِيقَانِ بِالْفِطَامِ، فَتَحَ طَرَفًا أَرْبَعَةً أَكْمَلَ مِنْهَا: طَعَامَانِ وَشَرَابَانِ، فَالطَّعَامَانِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ، وَالشَّرَابَانِ مِنَ الْمِيَاهِ وَالْأَلْبَانِ، وَمَا يُضَافُ إِلَيْهِمَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَلَاذِّ. فَإِذَا مَاتَ انْقَطَعَتْ عَنْهُ هَذِهِ الطَّرِيقُ الْأَرْبَعَةُ. لَكِنَّهُ - سُبْحَانَهُ - فَتَحَ لَهُ - إِنْ كَانَ

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص ٢٧.

سعيداً - طرقاً ثمانية، وهي أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيُّها شاء.

فهكذا الرب - سبحانه - لا يمنع عبده المؤمن شيئاً من الدنيا، إلا ويؤتيه أفضل منه وأنفع له. وليس ذلك لغير المؤمن. فإنه يمنعه الحظ الأدنى الخسيس، ولا يرضى له به؛ ليعطيه الحظ الأعلى النفيس. والعبد لجهله بمصالح نفسه، وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه، لا يعرف التفاوت بين ما مُنِع منه، وبين ما دُخِر له. بل هو مولع بحب العاجل وإن كان دنيئاً، وبقلة الرغبة في الآجل وإن كان علياً. ولو أنصف العبدُ ربَّه، وأتَى له ذلك؟ لَعَلِمَ أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها، أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك، فما منعه إلا ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا امتحنه إلا ليصافيه، ولا أماته إلا ليحييه، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليه، وليسلك الطريق الموصلة إليه. قال - تعالى -: ﴿ جَعَلَ آيَاتِهَا وَالنَّهَارَ

خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿[الفرقان: ٦٢]﴾
 ﴿الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩]. والله المستعان^(١).

قد نادت الدنيا على نفسها
 لو كان في العالم من يسمع
 كم واثق بالعمر واريته
 وجامع بددت ما يجمع^(٢)
 قال سعيد بن مسعود: إذا رأيت الرجل تزداد دنياه
 على آخرته وهو به راضٍ، فذلك المغبون الذي
 يلعب بوجهه وهو لا يشعر^(٣).
 وكان ابن السماك يقول: يابن آدم إنما تغدو في
 كسب الأرباح، فاجعل نفسك فيما تكسبه أنك لم
 تكسب مثلها^(٤).

(١) الفوائد ص ٧٥.

(٢) تاريخ بغداد ٤/ ٦٦.

(٣) الإحياء ٣/ ٢٢٣.

(٤) صفة الصفوة ٣/ ١٧٤.

ومن ينفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقرٍ فالذي فعل الفقر^(١)

* * *

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٠٠.

فوائد المال

فوائد المال تنقسم إلى دنيوية ودينية:

أما الدنيوية، فالخلق يعرفونها، ولذلك تهالكوا في طلبها.

وأما الدينية، فتنحصر في ثلاثة أنواع:

أحدها: أن ينفقه على نفسه، إما في عبادة، كالحج والجهاد، وإما في الاستعانة على العبادة، كالمطعم، والملبس، والمسكن، وغيرها من ضرورات المعيشة، فإن هذه الحاجات إذا لم تيسر، لم يتفرغ القلب للدين والعبادة، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به، فهو عبادة، فأخذ الكفاية من الدنيا للاستعانة على الدين من الفوائد الدينية، لا يدخل في هذا التوسّع والزيادة على الحاجة، فإنّ ذلك من حظوظ الدنيا.

النوع الثاني: ما يصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام:

أحدها: الصدقة وفضائلها كثيرة مشهورة.

القسم الثاني: المروءة، نعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية، وإعانة ونحو ذلك، وهذا من الفوائد الدينية؛ إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء.

القسم الثالث: وقاية العرض نحو بذل المال لدفع هجو الشعراء، وثلب السفهاء، وقطع ألسنتهم، وكف شرهم، فهو من الفوائد الدينية، فإن النبي ﷺ قال: «ما وقى الرجل به عرضه فهو صدقة» وهذا لأنه يمنع العتاب من معصية الغيبة، ويحرز مما يشير كلامه من العداوة التي تحمل في الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة.

القسم الرابع: ما يعطيه أجراً على الاستخدام، فإن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لمهنة

أسبابها كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته، وتعذّر عليه سلوك الآخرة بالفكر، والذكر، اللذين هما أعلى مقامات السالك، ومن لا مال له يفتقر إلى أن يتولى خدمة نفسه بنفسه، فكل ما يتصور أن يقوم به غيرك، ويحصل بذلك غرضك، فإن تشاغلك به غبن؛ لأنّ احتياجك إلى التشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم والعمل والذكر والفكر أشد.

النوع الثالث: ما لا يصرفه الإنسان إلى معين، لكن يحصل به خيراً عاماً، كبناء المساجد والقناطر، والوقوف المؤبدة. فهذه جملة فوائد المال في الدين، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة، من الخلاص من ذلك السؤال، وحقارة الفقر، والعز بين الخلق والكرامة في القلوب، والوقار^(١).

(١) منهاج القاصدين ص ٢١٤ وما بعدها.

أخي المسلم:

كان السلف يخشون النعم أن تكون استدراجاً لهم، ولهذا قال بعضهم: من سأل الله الدنيا فإنما يسأل طول الوقوف للحساب^(١).

وكان أبو الدرداء يقول: اللهم إني أعوذ بك من تفرقه القلب قيل: وما تفرقة القلب؟ قال: أن يوضع لي في كل نفرقو مالا^(٢).

والكنز ورأس المال في هذه الدنيا، ما قاله علي بن الحسين: من قنع بما قسم الله له فهو من أغنى الناس^(٣).

نصيبك مما تجمع الدهر كله
ردان تلوى فيهما وحنوط

(١) الإحياء ٢/٢٢٤.

(٢) صفة الصفوة ١/٦٣٩.

(٣) حلية الأولياء (٣/١٣٥).

أخي المسلم:

الدراهم أربعة: درهم اكتسب بطاعة الله وأُخرج في حق الله، فذاك خير الدراهم، ودرهم اكتسب بمعصية الله، وأُخرج في معصية الله، فذاك شرُّ الدراهم، ودرهم اكتسب بأذى مسلم وأُخرج في أذى مسلم، فهو كذلك، ودرهم اكتسب بمُبَاح وأنفق في شهوة مباحة، فذاك لا له ولا عليه.

هذا أصول الدراهم، ويتفرّع أُخَر: منها درهم اكتسب بحق وأنفق في باطل، ودرهم اكتسب بباطل وأنفق في حق، فإنفاقه كفارته، ودرهم اكتسب من شبهة فكفارته أن ينفق في طاعة. وكما يتعلق الثواب والعقاب، والمدح والذم بإخراج الدرهم، فكذلك يتعلق باكتسابه. وكذلك يسأل عن مستخرجه ومصروفه من أين اكتسبه، وفيَمَ أنفقَه؟^(١).

قال ميمون بن مهران: لا يسلم للرجل الحلال حتى

(١) الفوائد ص ٢٢٢.

يجعل بينه وبين الحرام جزءاً من الحلال^(١).

قال زبير بن الحارث: ألف بكرة أحب إليّ من ألف دينار^(٢).

والدنيا على كبرها في أعيننا إلا أنها في الواقع حقيرة صغيرة.

قال أبو الدرداء: أهل الأموال يأكلون وتأكّل، ويشربون ونشرب، ويلبسون ولبس، ويركبون ونركب، ولهم فضول أموال ينظرون إليها وننظر إليها معهم، وحسابهم عليها ونحن براء^(٣).

لقد ورث الإمام البخاري تركة عظيمة من أبيه العلامة إسماعيل، ولم يكن إسماعيل في تجارته كسائر الناس من التجار الذين قد لا يتورعون عن بعض الأمور، أو يقع من عمالهم ومساعدتهم شيء من التساهل والخطأ، فيقعون في أمور يلزم اجتنابها

(١) الورع لعبدالله بن حنبل ص ٤٤.

(٢) السير ٢٩٦/٥.

(٣) السير ٣٥٠/٢.

والحذر منها، وهكذا تصبح الأموال المكتسبة منها موضع شك وارتياب، ولكن اسماعيل كان حذراً في تجارته، محتاطاً في اكتسابه، فقد كان مجتنباً بعيداً كل البعد عن جميع مواضع الشبهات، وقد قال ذلك لأحيد بن حفص، وكان من أخص تلاميذه، عند وفاته:

لا أعلم من مالي درهماً من حرام، ولا درهماً من شبهة^(١).

وتعجب أبو حفص لهذا القول الذي يدل على أن إسماعيل كان مبالغاً في الإحتياط، واتقاء الشبهات، وفي الوقت نفسه كان يريد أن يوضح لوارثه الذي كانت الأقدار تهيئه ليكون إمام الدنيا، ويلقب بإمام المحدثين، أن لا يقع في قلبه أدنى شك فيجتنبه، أو يتنازل عنه، بل يستفيد منه في مشاكله؛ لأنه طاهر وطيب من كل وجه.

(١) مقدمة الفتح ٤٧٩.

وقال محمد بن أبي حاتم عن الإمام البخاري : إنه كان يعطى هذا المال مضاربة، وهي نوع من أنواع التجارة؛ لكي يتفرغ لخدمة العلم النبوي، وكان الله سبحانه وتعالى قد أغناه من كل جهة.

وكان سمحاً، رحيماً، قد أعطى حظاً وافراً منهما، فذات مرة قطع له أحد الغرماء خمسة وعشرين ألفاً، ف قيل له بأن الغريم قد وصل إلى أمل، وبإمكانك أن تأخذ منه الدراهم، فقال لهم: لا ينبغي لي أن أتعبه.

قال محمد بن أبي حاتم: فلما عرف الغريم جهودنا انتقل إلى خوارزم، فقلنا له: استعن بكتاب الوالي إلى حاكم خوارزم (لأن الغريم ليس بعيداً، وبإمكانهم أن يلحقوه بكل سهولة) فقال لهم: إن أخذت منهم كتاباً طمعوا، ولن أبيع ديني بدنياي.

قال محمد بن حاتم:

وكان لأبي عبدالله غريم قطع عليه مالاً كثيراً،

فبلغه أنه قدم أمل ونحن بفرب، فقلنا له: ينبغي أن تعبر وتأخذه بمالك، فقال: ليس لنا أن نروّعه.

ثم بلغ غريمه، فخرج إلى خوارزم فقلنا: ينبغي أن تقول لأبي سلمة الكشاني، عامل أمل؛ ليكتب إلى خوارزم في أخذه، فقال: إن أخذت منهم كتاباً طمعوا مني في كتاب، ولست أبيع ديني بدنياي.

فجهدنا فلم نأخذه حتى كلمنا السلطان عن أمره، فكتب إلى والي خوارزم، فلما بلغ أبا عبد الله ذلك وجد جداً شديداً، وقال: لا تكونوا أشفق عليّ من نفسي، وكتب كتاباً، وأردف تلك الكتب بكتب وكتب إلى بعض، فرجع غريمه، وقصد ناحية مرو فاجتمع التجار وأخبروا السلطان، فأراد التشديد على الغريم، فكره ذلك أبو عبد الله، وصالح غريمه على أن يعطيه كل سنة عشرة دراهم شيئاً يسيراً، وكان المال خمس وعشرين ألفاً، ولم يصل من ذلك إلي درهم ولا إلى أكثر منه^(١).

(١) الطبقات الكبرى للسبكي ٢/٢٢٦.

وكان يهدف الإمام البخاري من تجارته هذه (أي المضاربة) أن ينفع خلق الله، فكان يساعد أهل العلم، وطلبة العلم، والشيخوخ المحدثين، وكان ينفق من دخله خمسمائة درهم على الفقراء والمساكين، وطلبة العلم، وأصحاب الحديث كل شهر، فكان يعين طلبة العلم، ويشجعهم على الانهماك في طلب العلوم النبوية، ويحسن إلى أهل العلم كثيراً، ولم يكن يعرف الترف والبذخ في حياته في المأكل والمشرب، فكان الصبر والاحتمال قد أصبحا طبيعة له.

هب أنك قد ملكت الأرض طُراً
ودان لك البلاد فكان ماذا؟
أليس غذا مصيرك تُرب
ويحشو التراب هذا ثم هذا
قال الحسن: إذا أراد الله بعد خيراً أعطاه من
الدنيا عطية، ثم يمسك فإذا نفذ أعاد عليه، وإذا هان
عليه عبد بسط له الدنيا بسطاً.

وقال أبو حازم سلمة بن دينار: إن وقينا شر ما أعطينا لم نل ما فاتنا^(١).

وعن حميد الطويل قال: خطب رجل إلى الحسن، وكنت أنا السفير بينهما، قال: فكأن قد رضيته يوماً أثنى عليه بين يديه، فقلت: يا أبا سعيد وأزيدك أن له خمسين ألف درهم، قال: له خمسون ألف ما اجتمعت حلال، قلت: يا أبا سعيد إنه كما علمت ورع مسلم، قال: إن كان جمعها من حلال فقد ضنَّ بها عن حق، لا والله، لا أجري بيننا صهرأ أبدا^(٢).

وحال الناس مع الأموال، وزيادتها ونقصانها عجيب، ومن أعجب العجيب أنه يهتم بالنقص من ماله، ولا يهتم بالنقص مما هو أعظم من أموال الدنيا!

قال يحيى بن معاذ: عجبت ممن يحزن على

(١) صفة الصفوة ٢/ ١٥٨.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ١٥٦.

نقصان ماله. كيف لا يحزن على نقصان عمره؟! (١).
وعندما مرض قيس بن سعد بن عبادة، استبطأ
إخوانه، فقليل له: إنهم يستحون مما لك عليهم من
الدين، فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من
الزيارة، ثم أمر منادياً: من كان عليه لقيس حقٌّ فهو
منه في حل، قال: فانكسرت درجته بالعش؛ لكثرة
من عاده (٢).

وكتب غلامٌ لحسان بن أبي سنان إليه من الأهواز:
أنَّ قصب السكر أصابته آفة، فاشتر السكر فيما
قبلك.

قال: فاشتراه من رجل فلم يأت عليه إلا قليل،
فإذا فيما اشترى ربح ثلاثين ألفاً، فأتى صاحب
السكر، فقال: يا هذا إن غلامي كان كتب إليّ ولم
أعلمك، فأقلني فيما اشتريت منك، فقال الآخر:
فقد أعلمتني الآن وطيبته لك. قال: فرجع فلم

(١) صفة الصفوة ٩٥/٤.

(٢) منهاج القاصدين ص ٢٢١.

يحتمل قلبه، قال فأتاه فقال: يا هذا، إني لم آت هذا الأمر من قبل وجهه، فأحب أن يسترد هذا البيع، قال فمازال به حتى ردَّ عليه^(١).

قال سلمة الفراء: كان رأس مال عتبة الغلام فلساً يشتري به خصوصاً - الخوص: ورق المقل والنخل والنارجيل وما شاكلها، واحدته خوصة - يعمل به ويبيعه بثلاثة فلوس، فيتصدق بفلس، ويتعشى بفلس، وفلس رأس ماله.

أخي المسلم :

دع التهافت في الدنيا وزينتها
ولا يغرَّنك الاكثار والجشع
واقنع بما قسم الرحمن، وارض به
إن القناعة مال ليس ينقطع
وخل عنك فضول العيش أجمعها
فليس فيها إذا حققت منتفع^(٢)

(١) الورع لابن أبي الدنيا ص ١٠٥.

(٢) مكاشفة القلوب ص ٢٨٥.

ولو تأمل الناس اليوم في كلمات يسيرة لهانت الدنيا..

قال سميط بن عجلان: إنَّما بطنك يا بن آدم شبر في شبر فلم يدخلك النار^(١)؟

لا يومومك ينسأك

ولا رزقك يعدوكا

ومن يطع في الناس

يكن للناس مملوكا

فليكن سعيك لله

فإنَّ الله يكفيك^(٢)

كان داود الطائي قد ورث عن أمّه أربعمئة درهم، فمكث يتقوتها ثلاثين عاماً، فلما نفدت جعل ينقض سقوف الدويرة (تصغير الدار) فيبيعها حتى باع الخشب، والبواريّ (مفردها البورية): وهي الحصير

(١) الإحياء ٢٥٤/٣.

(٢) طبقات الحنابلة ص ٤١٩.

المنسوج من القصب واللبن حتى بقى في نصف سقفه، وجاءه صديق له فقال: يا أبا سليمان لو أعطيتني هذه فأبضعها لك؛ لعلنا نستفضل لك فيها شيئاً ينتفع به. فما زال به حتى دفعها إليه، ثم فكر فيها فلقى بعد العشاء الآخرة فقال: أرددها عليّ فقال: ولم ذاك يا أخي؟ قال: أخاف أن يدخل فيها شيء غير طيب فأخذها^(١).

تقنع بما يكفيك واستعمل الرضى
فإنك لا تدري أتصبح أم تمسي^(٢)

قال الحسن: بش الرقيقان، الدينار والدرهم لا ينفعانك حتى يفارقاك^(٣).

وقال مالك بن دينار: وددت أن الله - عز وجل -

(١) صفة الصفوة ٣/١٣٩.

(٢) التذكرة ص ٥٥.

(٣) السير ٤/٥٧٦.

جعل رزقي في حصة أمصها، لا ألتمس غيرها حتى أموت^(١).

وقال محمد بن سوقة: أمران لو لم نعذب إلا بهما لكنا مستحقين بهما لعذاب الله؛ أحدنا يزداد الشيء من الدنيا فيفرح فرحاً ما علم أنه فرحه بشيء زاده قط في دينه، وينقص الشيء من الدنيا فيحزن عليه حزناً ما علم أنه حزنه على شيء نقصه قط في دينه^(٢).

قال الشافعي: ما فزعت من الفقر قط، طلب فضول الدنيا عقوبة، عاقب بها الله أهل التوحيد^(٣).

عجبت لمن يخاف حلول فقر
ويأمن ما يكون من المنون
أتأمن ما يكون بغير شك
وتخشى ما ترجحه الظنون^(٤)

(١) حلية الأولياء ٢/ ٣٧٠.

(٢) صفة الصفوة ٣/ ١١٧.

(٣) السير ١٠/ ٩٧.

(٤) جنة الرضا ١/ ٦٣.

قال أبو صالح حمدون بن أحمد: كفايتك تساق إليك من غير تعب ولا نصب، وإنما التعب في الفضول^(١).

وما يدري الفقير متى غناه
ولا يدري الغني متى يعيل

قال عطاء بن مسلم: عاش داود الطائي عشرين سنة بثلاث مئة درهم^(٢).

خذ القناعة من دنياك، وارض بها
لو لم يكن لك إلا راحة البدن^(٣)
أخي المسلم:

أموالنا لذوي الميراث نجمعها
ودورنا لخراب الدهر نبنيها

(١) صفة الصفوة ٤/ ١٢٢.

(٢) السير ٧/ ٤٢٤.

(٣) موارد الضمآن ٣/ ٤٩٣.

والنفس تكلف بالدنيا، وقد علمت
 أَنَّ السلامة تركُّ ما فيها
 فلا الإقامة تُنجي النفس من تلف
 ولا الفرارُ من الأحداث ينجيها
 وكلُّ نفس لها زور يصبِّحها
 من المنيّة يومًا أو يمسيها
 قال عمرو بن دينار: ما رأيت الدينار والدرهم عند
 أحد أهون منه عند الزهري، كأنها بمنزلة البعر^(١).
 وعن النعمان بن حميد قال: دخلت مع خالي على
 سلمان الفارسي المدائن، وهو يعمل الخوص، فسمعتَه
 يقول: أشتري خوصًا بدرهم، فأعمله فأبيعه بثلاثة
 دراهم، فأعيد درهماً فيه، وأنفق درهماً على عيالي،
 وأتصدق بدرهم^(٢).

العيش ساعات تمرُّ
 وخطوب أيام تكررُ

(١) تذكرة الحفاظ (١٠٩/١).

(٢) صفة الصفوة (٥٤١/١).

اقنع بعيشك ترضه
واترك هواك تعيش حرّ
فلرب حنف ساقه
ذهب ويقاوت ودرّ^(١)

قال سفیان الثوري: العالم طيب الدين، والدرهم
داء الدين، فإذا اجترّ الطيب الداء إلى متى يداوي
غيره؟^(٢).

وفي الحكم المنشورة: بشر مال البخيل بحادث،
أو وارث^(٣).

كان المسور بن مخرمة قد احتكر طعاماً كثيراً،
فرأى صحاباً في الخريف فكرهه، فقال: ألا أراني
كرهت ما ينفع المسلمين؟ فإلى، أن لا يربح فيه
شيئاً، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -

(١) الإحياء ٢٥/٣.

(٢) تذكرة الحفاظ ١/٢٠٤.

(٣) مكاشفة القلوب ص ١٢٤.

فقال عمر: جزاك الله خيراً^(١).

المرء يجمع، والزمان يفرق
وظل يرقع والخطوب تمزق

كان حماد بن سلمة في سوقه، فإذا ربح في ثوب
حبة أو حبتين شد جيوبه وقام^(٢).

سهرت أعين ونامت عيون
لأُمُور تكون أو لا تكون
فاطرد الهم ما استطعت عن ال
نفس فحملانك الهموم جنون
إن رباً كفاك بالأمس ما كا
ن سيكفيك في غدٍ ما يكون

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما
ضُرب الدينار، والدرهم، أخذه إبليس ووضعهُ على

(١) جامع العلوم والحكم ص ١٣٢.

(٢) شذرات الذهب ١/ ٢٦٢.

عينيه وقال أنت ثمرة قلبي وقرة عيني، بك أطفئ، وبك أكفر، وبك أدخل الناس النار، رضيت من ابن آدم بحب الدنيا أن يعبدني^(١).

وقال بعض البلغاء: خير الأموال، ما أخذته من الحلال، وصرفته في النوال، وشر الأموال، ما أخذته من الحرام وصرفته في الآثام^(٢).

كان الليث بن سعد يستغل عشرين ألف درهماً في كل سنة وقال: ما وجبت عليّ زكاة قط. وقال حسان بن أبي سنان: لولا المساكين ما اتّجرت^(٣).

وقال يونس بن عبيد: إنما درهمان، درهم أمسكت عنه حتى طُلب لك فأخذه، ودرهم وجب لله - تعالى - عليك فيه حق فأديته^(٤).

(١) صفة الصفوة ١/٧٥٧.

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٢١٤.

(٣) حلية الأولياء ٣/١١٦.

(٤) حلية الأولياء ٣/١٧.

ترك التجارة للعبادة

قال - عز وجل - محذراً من الانشغال عن الطاعة والعبادة بأمور الدنيا:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

قيل لبشر بن الحارث: بالله يا أبا نصر أيهما أحلى، الدنانير أو الدراهم؟ قال: الطاعة والله أحلى منهما جميعاً^(١).

وقال خلف بن حوشب: كنت مع الربيع بن أبي راشد في الجبانة فقراً رجلاً: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ [الحج: ٥]، فقال الربيع: حَالَ ذَكَرِ الْمَوْتِ بَيْنِي وَبَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ التَّجَارَةِ، فَلَوْ فَارَقَ ذَكَرَ

(١) تاريخ بغداد ٤٢١/١٤.

الموت قلبي ساعة، لخشيت أن يفسد عليّ قلبي .
ولولا أن أخالف من كان قبلي لكانت الجبانة مسكني
إلى أن أموت^(١).

قال أبو الدرداء: بُعث النبي ﷺ وأنا تاجر،
فأردت أن تجتمع لي العبادة والتجارة، فلم يجتمعا،
فرفضت التجارة وأقبلت على العبادة، والذي نفس
أبي الدرداء بيده، ما أحب أن أملك حانوتا على باب
المسجد لا يخطئني فيه صلاة، وأربح فيه كل يوم
أربعين ديناراً، وأتصدق بهما كلها في سبيل الله، قيل
له: يا أبا الدرداء وما تكره من ذلك؟ قال: شدة
الحساب^(٢).

قال أبو الدرداء اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدوا
أنفسكم في الموتى، واعلموا أنَّ قليلاً يغنيكم، خير
من كثير يلهيكم، واعلموا أن البر لا يبلى، وأن
الإثم لا ينسى.

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٠٩ .

(٢) حلية الأولياء ١/ ٢٠٩ .

وكان الفضيل بن عياض يقول: أصلح ما أكون
أفقر ما أكون، وأني لأعصي الله أعرف ذلك في خلق
حماري وخادمي^(١).

وقال أبو علي الثقفى: يا من باع كل شيء بلا
شيء، واشترى لا شيء بكل شيء.
وقال: أفّ من أشغال الدنيا إذا أقبلت، وأفّ من
حسرتها إذا أدبرت^(٢).

فلو كانت الدنيا تنال بفطنةٍ
وفضلٍ ونقلٍ نلت أعلى المراتب
ولكنما الأرزاق حظّ وقسمة
بفضلٍ عليك لا بحيلة طالب
قال أبو حازم سلمة بن دينار: يسير الدنيا يشغل
عن كثرة الآخرة^(٣).

(١) صفة الصفوة ٢/٢٣٨.

(٢) السير ١٥/٢٨٢.

(٣) صفة الصفوة ٢/١٦٦.

يقولون لي فيك انقباض وإنما
 رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
 أرى الناس من داناها هان عندهم
 ومن أكرمتها عزة النفس إكراماً^(١)
 وقال مالك بن دينار: السوق مكثرة للمال، مذهب
 للدين^(٢).
أخي المسلم :

قال ابن مسعود: إن العبد ليهم بالأمر في التجارة
 والإمارة. حتي يسر له، فينظر الله إليه فيقول
 للملائكة، اصرفوه عنه؛ فإنه إن يسرته له أدخلته
 النار، فيصرفه الله عنه، فظل يتطير بقوله: سبني فلان
 وأهانني فلان. وما هو إلا فضل الله - عز وجل -^(٣).
 قال أبو حازم - سلمة بن دينار -: إن بضاعة الآخرة
 كاسدة، فاستكثروا منها في أوان كسادها، فإنه

(١) السير ٢٠ / ١٧.

(٢) حلية الأولياء ٣٨٥ / ٢.

(٣) جامع العلوم والحكم ص ٢٢٨.

لو جاء يوم نفاقها لم تصل منها إلى قليل ولا كثير^(١).

وقال عبدالرحمن بن مهدي: والله لا تجد فقد شيء تركته ابتغاء وجه الله، كنت أنا وأخي شريكين فأصبنا عللاً كثيرة، فدخل قلبي من ذلك شيء، فتركته لله، وخرجتُ منه، فما خرجت من الدنيا حتى رد الله عليّ ذاك المال، عامته إليّ وإلي ولدي. زوّجَ أخي ثلاث بناتٍ من بني، وزوجت ابنتي من ابنه، ومات أخي فورثه أبي، ومات أبي فورثته أنا فرجع إليّ وإلى ولدي في الدنيا^(٢).

تجرد من الدنيا فإنك إنما خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد^(٣)

أخي المسلم :

قال الحسن: مسكين ابن آدم رضي بدار حلالها

(١) صفة الصفوة ٢/ ١٦٣ .

(٢) صفة الصفوة ٤/ ٦ .

(٣) وفيات الأعيان ٥/ ٥٤ .

حساب، وحرامها عذاب، إن أخذه من حله حوسب به، وإن أخذه من حرام عُدَّ به، ابن آدم يستقل ماله، ولا يستقل عمله، يفرح بمصيبته في دينه، ويجزع من مصيبته في دنياه^(١).

وقيل لعبدالله بن عمر: توفّي فلان الأنصاري. قال رحمه الله. فقيل: ترك مائة ألف، قال: لكن هي لم تتركه^(٢).

أموالنا لذي الميراث نجمعها
ودورنا لخراب الدهر نبنيها
تلك المنازل في الآفاق خاوية
أضحت خراباً وضاق الموت بانيتها

قال أبو الدرداء: الحمد لله الذي جعل الأغنياء يتمنون أنهم مثلنا عند الموت، ولا نتمنى أننا مثلهم حينئذ، ما أنصفنا إخواننا الأغنياء، يحنوننا على

(١) الإحياء ٣/ ٢٢٤.

(٢) الزهد لابن السري ١٠/ ٣٣٥.

الدين، ويعاودوننا على الدنيا^(١).

أخي المسلم:

غوائل المال وآفاته، تنقسم إلى دينية ودنيوية:

أما الدينية فثلاث:

الأولى: أنه يجر إلى المعاصي غالباً؛ لأن من استشعر القدرة على المعصية، انبعث داعيته إليها.

والمال نوع من القدرة يحرك داعيته إلى المعاصي، ومتى يش الإنسان من المعصية، لم تتحرك داعيته إليها.

ومن العصمة أن لا تجد، فصاحب القدرة إن اقتحم ما يشتهي هلك، وإن صبر لقي شدة في معاناة الصبر مع القدرة، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية: أنه يحرك إلى التمتع في المباحات، حتى تصير له عادة وإلفاً، فلا يصبر عنها، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة، فيقتحم

الشبهات، ويترقى إلى آفات من المداهنة والنفاق؛ لأن من كثر ماله خالط الناس، وإذا خالطهم لم يسلم من نفاق وعداوة وحسد وغيبة، وكل ذلك من الحاجة إلى إصلاح المال.

الثالثة: وهي التي لا ينفك عنها أحد، وهو أن يلهيه ماله عن ذكر الله، وهذا هو الداء العضال، فإن أصل العبادات ذكر الله - تعالى - والتفكر في جلاله وعظمته، وذلك يستدعي قلباً فارغاً.

وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكراً في خصومة الفلاحين، ومحاسبتهم وخيانتهم، ويتفكر في منازعة شركائه في الحدود والماء، وأعوان السلطان في الخراج، والأجراء على التقصير في العمارة، ونحو ذلك.

وصاحب التجارة يمسي ويصبح متفكراً في خيانة شريكه، وتقصيره في العمل، وتضييعه المال. وكذا سائر أنواع المال، حتى صاحب المجموع المكنوز يفكر في كيفية حفظه، وفي الخوف عليه.

ومن له قوت يوم بيوم فهو سلامة من جميع ذلك، وهذا سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا، من الخوف، والحزن، والهم، والغم، والتعب.

فإذا تریاق المال أخذ القوت منه، وصرف الباقي إلى الخيرات، وما عدا ذلك سموم وآفات^(١).

قال يحيى بن معاذ: مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما في ماله (أي في مال الإنسان) عند موته، قيل: ماهما؟ قال: يؤخذ منه كله ويسأل عنه كله.

يريد المرء أن يُعْطَى مناه
ويأبى الله إلا ما أراد

يقول المرء فائدتي ومالي
وتقوى الله أكرم ما استفادا^(٢)

قال أبو الدرداء - رضي الله عنه -: أبو الدرهمين أشد حبساً، أو قال أشد حساباً من ذي الدرهم^(٣).

(١) مختصر منهاج القاصدين ٢/٤ وما بعدها.

(٢) طبقات الشافعية ٢/١٨٤.

(٣) الإحياء ٤/٢١٠.

بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان:
الصبر، والعلم، والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور:
الأول: الاقتصاد في المعيشة، والرفق في الإنفاق،
فمن أراد القناعة، فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب
الخرج ما أمكنه، ويرد نفسه إلى ما لا بد له منه،
فيقنع بأي طعام كان، وقليل من الإدام، وثوبٍ
واحد، ويوطن نفسه على ذلك، وإن كان له عيال،
فيرد كل واحد إلى هذا القدر.

قال النبي ﷺ: «ما عال من اقتصد»^(١) وفي
حديث آخر: «التدبير نصف العيش». وفي حديث

(١) رواه أحمد.

آخر: «ثلاث منجيات: خشية الله - تعالى - في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضى والغضب».

الثاني: إذا تيسر له في الحال ما يكفيه، فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل، ويعينه على ذلك قصر الأمل، واليقين، بأن رزقه لا بد أن يأتيه، وليعلم أن الشيطان يعده الفقر.

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي، أنه ليس من نفس تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله - عز وجل -، إنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته».

وإذا انسدَّ عنه باب كان ينتظر الرزق منه، فلا ينبغي أن يضطرب قلبه، فإنَّ في الحديث: «أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب».

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء،

وما في الطمع والحرص من الذل.
وليس في القناعة إلا الصبر عن المشتريات
والفضول، مع ما يحصل له من ثواب الآخرة، ومن
لم يؤثر عز نفسه عن شهوته، فهو ركيك العقل،
ناقص الايمان.

الرابع: أن يكثر تفكره في تنعم اليهود والنصارى
وأرذال الناس، والحمقى منهم، ثم ينظر إلى أحوال
الأنبياء والصالحين، ويسمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم،
ويخير عقله بين مشابهة أرذال العالمين، أو صفوة الخلق
عند الله - تعالى - حتي يهون عليه الصبر على القليل،
والقناعة باليسير، وأنه إن تنعم بالأكل فالبهيمة أكثر أكلاً
منه، وإن تنعم بالوطء فالعصفور أكثر سفاداً. منه.

الخاص: أن يفهم ما في المال من الخطر، كما
ذكرنا في آفات المال، وينظر إلى ثواب الفقر، ويتم
ذلك بأن ينظر أبداً إلى من دونه في الدنيا، وإلى من
فوقه في الدين، كما جاء في الحديث من رواية

مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»^(١).

وعمد الأمر: الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل لتمتع دائم، فيكون كالمرضى الذي يصبر على مرارة الدواء لما يرجو من الشفاء.

كان الأوزاعي الفقيه كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات:

المال ينفذ حِلَّه وحرامه

يوماً ويبقى بعده آثامه

ليس التقى بمتقٍ لإلهه

حتى يطيب شرابه وطعامه

ويطيب ما يجنى ويكسب آجله

ويطيب من لفظ الحديث كلامه

نطق النبي لنا به عن ربه

فعلى النبيّ صلاته وسلامه^(٢)

رزقنا الله جميعاً الرزق الحلال الطيب المبارك،

(١) رواه مسلم.

(٢) طبقات الحنابلة ١/ ٤٠٥ أدب الدنيا ص ٢١٤.

وجعل مافي ايدينا عوناً على الطاعة، وغفر لنا ولوالدينا
ولجميع المسلمين. وصلى الله وسلم على نبينا،
محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
مدخل	٥
أسباب الرزق	١٥
كثرة المال ونتاجه	٤٥
فوائد المال	٥١
ترك التجارة للعبادة	٧٢
بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذي تكتسب به	
صفة القناعة	٨١
الفهارس	٨٦